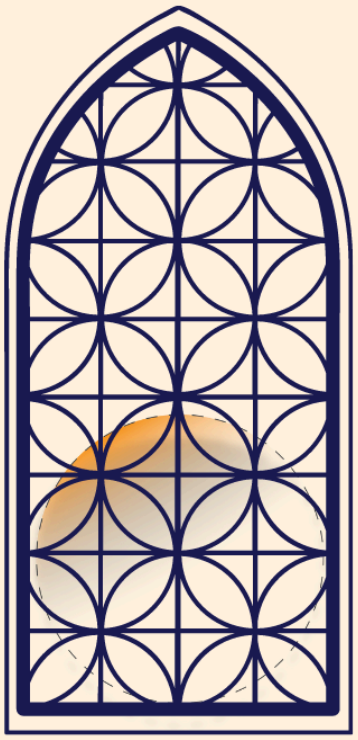

لقاءات التفسير الرمضانية

أ . أناهيد بنت عيد السميري

١٤٤٣ من الهجرة النبوية الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

/https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزّ وجلّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء التاسع عشر

الأربعاء 19 رمضان 1443

سورة الشعراء الآيات (١٠ - ٢٢)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، وهو أهل للثناء والحمد، أنزل على رسوله هذا الكتاب العظيم فكان فيه تربية للمؤمنين، وإصلاح للمخبتين وتسلية لقلوب الخائفين الوجلين، يسليهم رب العالمين بما يحكي لهم من مثلات، وبما يعرف لهم به نفسه -سبحانه وتعالى-.

كم يزول عن القلب -الخائف أو الحزين- الخوف والحزن عندما يسمع عن رب العالمين وعندما يسمع عن تدبيره، وعندما يسمع عن أفعاله العظيمة التي يحصل من ورائها الطمأنينة للنفس المؤمنة.

ولننظر الفرق العظيم بين هذه المنة الكبيرة العظيمة، منة القرآن الذي يتلوه المؤمن ويرجو الله أن يكون من المقبولين، يتلوه آناء الليل وأطراف النهار، فلنرى الفرق بين هذه النعمة التي فيها أخبار الحق والصدق، التي تسلي النفس المؤمنة، وتكون سببًا لانشراح صدرها، نقارن بين هذه النعمة وبين كلام الشعراء الذين يكون في غالب شأنهم أنهم مقبلون على

طريق الغي والردى، ويكونون هم بأنفسهم غاوين، ويتبعهم كل غاوٍ وضال.

وهذا في الحكم على الأغلب، وإلا فهناك من كان في شعره حكمة، لكن مهما بلغت حكمة الحكماء، ومهما بلغت قدرتهم على التعبير عن هذه الحكمة بالشعر، فإنها لا شيء أمام كلام رب العالمين، أمام الحق المبين، أمام هذه الأخبار التي تزيل الأحزان، وهذه الحقائق التي تثبّت الوجدان، شعر الشعراء لا شيء، هذا إن كانوا حكماء، وهم قليل، لكن السواد الأعظم، كما أخبر رب العالمين أن هؤلاء الشعراء يتبعهم الغاوون.

فأتت هذه السورة العظيمة؛ سورة الشعراء فيها من الأخبار عن الله، والأخبار عن آيات الله ما فيها، وفيها من التسلية للنفوس المحزونة التي ترى أنها مغلوبة، أو ترى أنها راغبة إلى الله وراهبة من الله وطالبة من الله، ولا تدري كيف يدبر الله لها شأنها! فيحكي لنا رب العالمين عن نفسه -سبحانه وتعالى-، وعن أفعاله مع رسله ما يجعل الإنسان في غاية الأمان؛ أن من اتخذ الله وليًا واعتصم به فإنه (نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)[1] هو حسبنا ونعم الوكيل.

فنقف اليوم إن شاء الله مع ما يتيسر من قصة موسى -عليه السلام- في مطلع سورة الشعراء، ومتوقع أن ننهي مطلع القصة وتعريف موسى -عليه السلام- لفرعون برب العالمين.

---

[1]() الأنفال: 40.

نبدأ بتلاوة الآيات ابتداء من الآية: (10):

بسم الله الرّحمن الرّحيم

(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ (11) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (14) قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (15) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (19) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22))

(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

هذه الآية العظيمة تنبئنا أننا أمام قصة موسى -عليه السلام- وهي من أكثر القصص التي أعادها -سبحانه وتعالى- في القرآن؛ لما فيها من عظيم الحِكَم، خصوصًا وأن فرعون هو رمز الجبروت في الأرض، فبيّن -عزّ وجلّ- أنه على كل شيء قدير، وأن من يمرض قلبه بمثل مرض فرعون، مرض الكبر والجحود والإنكار، مهما وصل في الأرض إلى سلطان، فإنه هالك!

وقد مرّ معنا موقف النداء الذي كان من رب العالمين لموسى -عليه السلام- كما وقفنا على ذلك في سورة طه، وهو من أعظم المواقف التي يحتاج المؤمن دائمًا أن يفكر فيها؛ ما أعظم الله وما أرحم الله وما ألطف الله بعباده. ناداه في ذاك الموقف، ثم أنه -سبحانه وتعالى- أمره هذا الأمر، وهنا موقف النداء مختصر، أشير إليه فقط، وبيانه في بقية السور التي من أمثالها سورة طه.

بماذا أمره -سبحانه وتعالى-؟

أمره -سبحانه وتعالى- بأن يأتي القوم الظالمين، وفي وصفهم بهذا الوصف بيان أن النفوس السليمة تبغض الظلم؛ لأن الله أراد -والله أعلم بهذا- أن يثير نفس موسى -عليه السلام- وهو صاحب القوة، والشكيمة والشجاعة، الذي لا يرضى الظلم بدليل ما حصل له وهرب من أجله، كما سيتبين في تسميته ذلك (ذنب) فإن موسى -عليه السلام- الرجل الشهم، الذي هو على فطرته السوية، والذي قد تعلم الحق من والدته التي هي من بني إسرائيل، يكره الظلم، كما يكرهه أي إنسان باقٍ على فطرته. فوصف الله -عزّ وجلّ- هؤلاء بأن أمرهم قام على الظلم فسماهم (القوم الظالمين) يعني قاموا على الظلم، قامت حياتهم على الظلم!

وهؤلاء كما تبيّن في قصتهم ومعروف أن هذا الظلم كان ابتداؤه بكونهم قوم متجبرين على الخلق، وبكونهم قوم ارتكبوا

أعظم الظلم، وهو الشرك بالله، وجعل مع الله شريك، بل ادعى الألوهية المطلقة.

ثم عرف الله -عزّ وجلّ- لرسوله مَن هؤلاء القوم، في النداء الأول لم يكن ظاهرًا إلا أنهم موصوفون بهذا الوصف الذي يكفي النفوس الشريفة؛ لأن إذا قيل إن هؤلاء قوم ظالمين) أبغضتهم النفس مباشرة ورفضتهم، واتجهت إليهم النفس باللوم، فبيّن الله -عزّ وجلّ- له مَن هؤلاء القوم الظالمين:

(قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ)

عرّف الله -عزّ وجلّ- لموسى -عليه السلام- مَن هم هؤلاء القوم، وهذا أمر نلاحظه في خطاب القرآن، أن الظلم عندما يوصف به أحد يراد أن يقع في النفس السليمة استنكار هذا الظلم واستنكار أهله، فبيّن الله -عزّ وجلّ- أن هؤلاء هم قوم فرعون.

ثم قال له رب العالمين: (أَلَا يَتَّقُونَ) لما أمره الله -عزّ وجلّ- أن يأتي القوم الظالمين، كأنه قيل: (أي قوم)؟ فبيّن -عزّ وجلّ- أن هؤلاء قوم قاموا على الظلم وهم قوم فرعون، وقاموا على الظلم لظلم أنفسهم بالكفر ولظلمهم غيرهم، ومن ذلك ظلم بني إسرائيل، فهؤلاء قوم فرعون.

أُرسل موسى -عليه السلام- من أجل أن يتقوا الظلم، وأن هؤلاء قد طال إمهالهم من رب العالمين وهم لا يزدادون إلا عتوًا وإلا ظلمًا، فكأن رب العالمين يقول لهم: (أَلَا يَتَّقُونَ)، ألا

تستحون من رب العالمين الذي خلقكم ورزقكم فتتركون ما أنتم عليه من الكفر؟ (أَلَا يَتَّقُونَ) سبحان الله كأن الخطاب لهم (قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ)؟ الآن يأتي جواب موسى -عليه السلام-:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ)

موسى -عليه السلام- يتوقع هذا الأمر لأن أي عاقل يعرف أننا إذا أتينا للناس بما يخالف أهواءهم لا يقبلون. عندما يقول لرب العالمين، أولًا: قال: (ربي)، نادى رب العالمين بوصف الربوبية، فكأنه الآن وهو مستسلم لله وليس معترض على الله، وخائف من التكذيب؛ لأن في هذه الرسالة -كما هو متبين- إذا أتى الإنسان بشيء يخالف هوى الناس متوقع التكذيب.

(قَالَ رَبِّ) أنت ربي الذي ربيتني وأنت الرفيق والرؤوف بي، والرحيم بي.

(إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ) فلا أستطيع أن أوصل الرسالة. وهذا يدلنا على شرف نفس موسى -عليه السلام- وليس على هروب موسى من المسؤولية، على العكس، يريد أن يوصل الرسالة، وقر في قلبه الحرص على نجاح الرسالة، والتكذيب سيسبب عدم وصول الرسالة، فهو الآن يضمن هذا الخبر بطلب المعونة، يصف خطر المقام طالبًا العون من الله، وهكذا يكون خطاب أهل الإيمان مع رب العالمين، يا رب الفتن كثيرة، والنفس تواقة وتتفلت مني، يا رب أعني! فهذا خبر

متضمن طلب العون، لما يظهر الإنسان مقام الخطر الذي هو فيه.

(إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ) فلا أصل للنتيجة التي أريدها، فكأنه يقول: اجعل لي قبولًا، اجعل لي مهابة. فكان في خبر طلبه هذا طلبًا للعون.

ثم إنه بيّن بعد ذلك أيضًا أسباب تسبب طلب هذا العون:

(وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ)

هنا بيّن أمور مترتبة على حصول التكذيب، يقول: (أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ) ويترتب على ذلك أني أخاف أن (يَضِيقُ صَدْرِي).

ويترتب على ذلك أخاف أن (لَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي).

وهذه أمور متصلة ببعضها، التكذيب الذي سيقع يوقع ضيق القلب، وضيق القلب يسبب احتباس اللسان، وإذا أردنا فهم هذا بشيء من التفصيل:

الإنسان يتصور أنه يحمل مسؤولية، وهذه المسؤولية تحتاج منه لسانًا منطلقًا ليبينها، نفترض أنه مسؤول عن بيان الحق، وعن الدفاع عن الحق، أكيد أن هذا سيجعل في داخل نفسه حديثًا طويلًا، ماذا سيقول وكيف سيرد، ولو قالوا كذا ماذا سيقول ولو قالوا كذا ماذا سيقول، فيبقى متحمل مسؤولية إقناعهم بالحق الذي جاء به، وهذه من المسؤوليات العظيمة.

عندما يتحمل هذه المسؤولية يبقى العقل دائمًا في خواطر إعداد لهذا اللقاء، للرد عليهم، براهين وأدلة.

هذا الإعداد فيه تعب للفكر والنفس، فيمتلئ الصدر بهذا ويشعر الإنسان بالجهد وهو يبحث المسالة مع نفسه، فإذا بيّنها يشعر بالراحة، عندما تخرج من صدره يشعر الإنسان بالراحة فينشرح الصدر، ومن هذا دعاءه في طه: (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي) التكذيب يجعل هذه المسؤولية أكبر، ويجعل إخراج هذا الحق من النفس فيه شيء من الصعوبة.

أو بصورة أخرى؛ عندما تكثر في النفس الاستدلالات، ويأتي من أجل أن يعرضها عليهم، إذا كذبوه فهذه الاستدلالات تتحرك في النفس ويمتلئ صدره بها وهم يكذبونه فلا يستطيع إخراجها من فمه، يضيق صدري حين يكذبوني وتكون النتيجة أنه لا ينطق لساني، وهذا كثير ما يحصل مع أصحاب الحق؛ أن يكون الحق في داخلهم، ويحتاجون ليجمعوه من صدورهم وبقوة يبينون به الحق على ألسنتهم، فيحصل بعد ذلك انشراح لصدورهم عندما يخرج الحق من صدورهم إلى ألسنتهم، على مسامع المقصودين.

فإذا حصل التكذيب والقلب مليء بالأفكار ويريد أن يرتبها، يفقد القدرة على تحويلها من أفكار في داخله ومن حقائق يريد أن يوصلها إلى لسانه. يضيق الصدر ومن ثمّ لا ينطلق اللسان، وهو هنا يشعر بثقل الأمانة، ويظهر منه الحرص

على تنفيذ مراد الله؛ ولذا يطلب من يعينه على ذلك؛ لأنه -كما هو متبين- إذا وقع التكذيب، أو خوف التكذيب ضاق القلب وانحبس اللسان فما يستطيع الإنسان أن يوصل الرسالة، وكم من صاحب حق هوجم حتى فقد القدرة على التعبير عن هذا الحق!

فكانت الحاجة ماسة إلى معين يقوي القلب ويعين على ترتيب الفكر وعلى بيان الحق؛ لذلك قال طالبًا من الله: (فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ) هذا ليس فيه اعتذار عن تحمل المسؤولية، وإنما أريد يا رب أن يكون هارون أخي رسولًا معي، فيكون لي عضدًا.

ونؤكد هنا أن هذا ليس اعتذارًا أبدًا، كلامه هذا بأن (أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ) وخبره عن ضيق الصدر وانطلاق اللسان، كما تبيّن من البداية، هو طلب للعون، ويكفي بطلب العون دليل على التقبل والاستسلام لا على التعلل والهروب.

ثم ذكر عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم، أمرًا آخر يخافه:

(وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)

هنا أيضًا مسألة معروفة، التي بسببها خرج من عندهم، من مصر على مدين. وهو ما حصل من قتل القبطي، وأن هذا ذنب، جرم، حتى لو لم يكن لهم شريعة، لكنه ذنب، وفي سورة القصص كان واضحًا بيّنًا طلب موسى -عليه السلام-

من رب العالمين أن يغفر له الذنب، (قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ) هذا هو تفسير (وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ) والآية معروفة في كونه (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا) وكيف أنه (فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ) ما كان من موسى إلا (فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ) يعني قتله، وتبين في السورة أن الله غفر لنبيه هذا الذنب (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ)[2] وبيّن أن هذا من عمل الشيطان، فهو ذنب ولو لم يكن عندهم شريعة على ذلك، لكن من الخبر الذي ذكره موسى -عليه السلام- يقصد بذلك أنهم يؤاخذوني، يقتلوني، ولا أتمكن من أداء الرسالة. فكأنه يرى أن هارون معه يعاضده في إبلاغ الرسالة.

وهذا أيضًا نوع من أنواع سؤال النصر والتأييد وأن يكفيه شر عدوه حتى يؤدي ما عهد الله إليه على أكمل وجه.

فأجابه رب العالمين:

(قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ)

هنا تصور هذا المعنى المجمل، رب العالمين يقول له: (كَلَّا) هذا حرف إبطال، أو كأنه يقال لموسى -عليه السلام- : اترك هذا عنك فإنه لا يكون شيء مما خفت، لا قتل ولا غيره، لكن هذا الوعد المجمل سبحان الله لا يعني أنك لن تجد أخطارًا، ولن تجد أمورًا تخافها، إن هذا كله موجود في

---

[2]() القصص: 15-16.

الطريق؛ آلام، أحزان، مخاوف، إيذاء، ستجد! لكن في النهاية...لن يتمكنوا منك، وفي النهاية سينتصر الحق.

فهذا الوعد المجمل -سبحان الله- في كلمة واحدة: (كَلَّا) وهذا يذكرنا بما في قصة يوسف أيضًا من الأمر العجيب؛ أن يوسف -عليه السلام- يرى الرؤية، ويخبر بالرؤية يعقوب -عليه السلام- ويتأكد يوسف -عليه السلام- ويعقوب -عليه السلام- أن هذه الرؤية حق وأنها ستكون، وأنه سيحصل ارتفاع ليوسف -عليه السلام- لكن كيف سيكون؟ وماذا في الطريق من آلام وأحزان ومخاوف؟ وكيف يتشبث الإنسان بوعد الله في وسط كل هذه الأحزان والآلام والمخاوف؟ لأنه يمكن أن يحصل يأس فيها!

في سورة يوسف كان هذا أمر عجيب، هو الذي جعل يعقوب -عليه السلام- متمسكًا، واثقًا في عودة يوسف -عليه السلام- متأكدًا أن الله -عزّ وجلّ- لن يخلف وعده، وأن هذه الرؤية الحق كانت بمثابة خيط الأمل الذي أبقى يعقوب -عليه السلام- منتظرًا عودة يوسف -عليه السلام- خيط الأمل هذا هو الذي في نهاية قصة يوسف -عليه السلام- جعل يعقوب -عليه السلام- يخاطب بنيه: (اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ) ويحرص أن يوصيهم هذه الوصية وهي دفع اليأس ومنعه (وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا

الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)[3] وعدك الله بالنصر، وعدك الله باستجابة الدعاء، سيستجيب لك الدعاء وستصل إلى مرادك بإذن الله، لكن متى وكيف وما هي التفاصيل وما هي الأجور العظيمة التي ستكون من هنا حتى يجاب لك الدعاء؟ وما هي المنح التي سيعطيك الله إياها؟

إن كان هذا لك خير وقدره الله لك سيعطيك الله إياه لكن بعد اختبار لإيمانك وثقتك به.

هذا أمر عجيب، رب العالمين يقول لموسى: (كَلَّا) لن تُقتل، ولن يستطيعوا أن يؤذوك بشيء، لا قتل ولا غيره، لكن كيف؟ وما هي الأوضاع؟ وما هي الأحوال ومتى سيكون؟ وبين هذه اللحظة التي تيقنت فيها أن رب العالمين معي ويسمعني، وبين لحظة النجاة والعطاء والشفاء، كم ستكون من مصاعب؟ وكم ستكون من اختبارات للإيمان بالله؟ وكم سيكون هناك دعاء وطاعة!

سيكون أمر طويلًا لكن في النهاية كلها أجور للإنسان، وتذكر الذي أماته الله مئة عام ثم أحياه ليتعلم درسًا عظيمًا من دروس التوحيد وهو (أن الله على كل شيء قدير). فالعلم عن الله والثقة بالله أمر ينجح فيه أهل الإيمان حين يستعينون بالله ويدفعون عنهم اليأس دفعًا تامًا، يثقون بالله ثقة تامة،

---

[3]() يوسف: 87.

ويستعينون به وهو -سبحانه وتعالى- يحفظهم من وساوس الشياطين.

فقال رب العالمين: (كَلَّا) إبطال لكونهم يستطيعونه، ووعد بنصره.

ثم يأمر الله موسى أن يذهب هو وهارون بآياته -سبحانه وتعالى- الدالة على أنهم رسل، ويأتي هنا خبر غاية في الأهمية والعظمة، لما أمرهم أن يذهبوا بالآيات، نبههم -سبحانه وتعالى- أنهم ليسوا وحدهم، وهذا أكثر ما يقوي الفؤاد: الشعور بمعية الله (إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ).

وهذا مثل موقف طه (لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) فالمقصد أن الله -عزّ وجلّ- طمأن موسى -عليه السلام- غاية الطمأنينة في بيان أنه معه، وهذه معية خاصة، معية النصر والتأييد، ومن كان الله معه كان كل خير وصلاح له، ويكفي الإنسان أن يعيش لذة معية الله والطمأنينة التي يشعر بها من وراء هذه المعية التي لا يستطيع وصفها كائن من كان، إنه أمر يذاق من حلاوة الإيمان! والذوق هو الحاسة التي لا يمكن نقلها، وهذا يجعلنا نقف أمام كلمة (حلاوة الإيمان) ونرى أنها تجربة شخصية لا يمكن لأحد وصفها؛ لأن الذوق هو الحاسة الوحيدة التي لا يمكن لأحد نقل تجربتها للغير مهما قلنا: (مر وحلو) في الذوق المسألة مختلفة تمامًا، لا يستطيع الإنسان نقلها حقيقة.

عرفنا هنا رحمة رب العالمين لموسى -عليه السلام- وهذه الطمأنينة العظيمة التي أراد الله -عزّ وجلّ- أن تدخل إلى قلب موسى وإلى قلب هارون، وإلى قلب كل مؤمن بالله؛ أن الله إذا كان معه فليطمئن غاية الطمأنينة.

فالآن يأتي الخبر الذي فيه أمر لموسى -عليه السلام- وهارون بتعريف فرعون برب العالمين:

(فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

هذا كلام فيه أمر عظيم من رب العالمين، كلفهم بالرسالة، وأمرهم أن يذهبوا إلى فرعون وأن يقولا لفرعون إنهم رسل، وتصور فرعون وما فيه من طغيان، فيذهبان له ويقولان إنهم رسل من عند الرحمن، وهو كان يرى نفسه أنه الرب الأعظم! ومع هذا قوّى الله قلب موسى وهارون لمواجهة فرعون، وكل هذا من آثار معية الله.

فلنستشعر دائمًا أن هذه الشجاعة والقوة الإيمانية، إنما تأتي عندما يشعر الإنسان بحقيقة قرب الله، وحقيقة قدرة الله، وأنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله. وهذا مثل شجاعة الصحابة الكرام، كما في آل عمران، لما خوفهم الناس (إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ) ليقتلوكم ويهلكوكم ويستأصلوكم، فكانت هذه الأخبار زيادة في الإيمان، زاد الإيمان لما زادوا ثقة بالله، ولما زادوا يقينًا أنه لن يصيبهم إلا ما كتب الله، ولما زادوا استشعارًا

بمعية الله، وقالوا: (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)[4] الله كافينا، من كان هذا يومه مات، وهذا قد قدر له أن يموت، مات على فراشه أو مات مدافعًا عن الحق، ومن لم يقدر له الموت لا يستطيعونه، فما أطيب هذه الشجاعة!

فذهبا وقالا هذا القول وطلبا منه هذا الطلب الذي أمرهم رب العالمين:

(أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)

هذا قول رب العالمين لك، (أَرْسِلْ مَعَنَا) أطلقهم ولا تحبسهم، وهذا يتضمن أن موسى أُمر بإخراج بنو إسرائيل من بلاد الفراعنة لقصد تحريرهم من استعبادهم، كما سيأتي (أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) وهذا على أنهم يخرجون إلى الأرض المقدسة التي وعدهم الله بها على ألسنة الأنبياء.

سنرى إجابة فرعون التي فيها معاني غاية في الدقة نقف على ما تيسر لنا:

(قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ)

هذه أول جملة قابل بها الخبر الذي جاء به موسى هنا في سورة الشعراء. لما قال له: (أنا رسول من رب العالمين، وأرسل معنا بني إسرائيل) اعترف فرعون اعترافًا ضمنيًا بمسألة فطرية لا يمكن لأحد أن ينكرها، وهي:

---

[4]() آل عمران: 173.

أن الرب المربي وحده يستحق الشكر، وأن إنكار نعمة الرب كفر.

كل النفوس حتى نفس فرعون تعترف بهذه الحقيقة الفطرية وهي أن الذي ربى يستحق الشكر، وأن عدم شكره كفر، فالشكر مستحسن فطري، والكفر مستقبح فطري.

فتصور أن فرعون يعترف اعترافًا فطريًا بهذا الكلام. فأول ما واجهه يريد أن يقول له: (أنت مخطئ يا موسى، وأنت لا تستحق أن يُسمع منك)...لماذا؟

قال له: (أَلَمْ نُرَبِّكَ) بعظمتنا التي أنت شاهدتها (فِينَا وَلِيدًا)، فجعل التربية التي هو رباها كما هو معروف في القصة لما أخذوه وهو طفل صغير، أن هذه التربية موجبة للشكر. ربيناك فينا، كأنه يقول: الأمر الأول: (نحن لنا عليك منّة التربية، ومنّة التربية فطريًا تقتضي المحبة وتقتضي البر).

الأمر الثاني: (وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ) أنك بقيت عندنا سنين، ربيناك وكفلناك ودبرنا شؤونك وكنت في عائلتنا، ثم بقيت سنين من عمرك تعيش في نعمائنا، سبحان الله! هذا يجعلنا نفكر دائمًا أن الإنسان وهو لم يربِ على الحقيقة، وإنما الله هو الذي يربي، هو الذي يطعم ويسقي -سبحانه وتعالى- يطعم ويسقي هذا الجنين وهو في بطن أمه ويخرجه سالمًا وينقله من طور إلى طور في الحياة في بدنه وروحه، فالفضل لله ونحن مجرد رعاة، نأخذ ما يعطينا الله، ونعطيه لهؤلاء

الأبناء، ومع ذلك عندما يحصل عقوق من الأبناء، نجد أن هذا العقوق حار في أفئدة الآباء والأمهات، مؤلم. ومن ينظر إلى العاقين يستقبح تمامًا فعلهم، سبحان الله!

كيف حالنا مع رب العالمين! الذي ربانا على الحقيقة؛ أوجدنا وأعدنا وأمدنا. لاحظ أن فرعون يعترف أن الرب من حقه المحبة ومن حقه أن يكون الإنسان بارًا في عبادته وطاعته، سبحان الله!

المقصد أن الله أقام عليه الحجة، ومع ذلك (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ)[5] وسيظهر هذا أيضا في الآية التالية:

(وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

الذنب: قتله للنفس، فرأى موسى بآثار الفطرة الإنسانية التي هي أصول العقل الإنساني، أي عاقل يفكر بهذه الطريقة؛ يقول له: أحسنت لك فالمفترض أن ترد الإحسان بالإحسان ولا ترده بذنب وتقتل نفس بعد أن أكرمتك، فهذا ليس إحسانًا، إنما هذا كفران، ويقول له: (وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) لنعمتي وحق تربيتي بقتل من ينسب إلي، سبحان الله!

يرى أن قتل موسى -عليه السلام- لهذا الرجل كفر، وما يرى أن قتله لبني إسرائيل وغيرهم كفر لرب العالمين!

---

[5]() النمل: 14.

يرى أن تربيته لموسى -عليه السلام- توجب الصلة والبر والمحبة، ولا يرى أن تربية الله له توجب عليه ذلك!

فسبحان الله كيف ينطق أهل الباطل بالحق، ويدلنا هذا على وجود الحق في النفس الإنسانية لكن التجاهل لهذه الحقائق جعل الناس يظنون أنها غير موجودة، وهي ناطقة في النفس، ترغم الإنسان على الوصول إلى الحقيقة، إذا كان فرعون الذي هو نموذج الكفر والطغيان معترف بهذه الحقيقة فكيف بغيره؟!

سيرد عليه موسى -عليه السلام- ردًا يبيّن أن لا حجة لفرعون فيما قال، وانظر إلى هذه الشجاعة الإيمانية ورباطة جأش موسى وتوكله على ربه، كيف يبعثه هذا كله على هذا الجواب:

(قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ)

اعترف الآن بهذه المسألة؛ أنه فعل، أي قتل. وأنه في فعله هذا كان من المخطئين في كونه قتل، لكن سيبيّن له بعد ذلك أن هذا كله إنما كان من آثار جبروته، من آثار أفعال فرعون ونشره للظلم بين الناس.

فوصل الحال أنه كان لا يرفع هذا الظلم إلا بمثل هذه الخطايا. الظلم حين ينتشر بين الخلق يحصل مثل هذه الأمور التي تكون مخالفة للحلم وللعفو وللدفع بالأحسن، كأن الظلم يولد ظلمًا.

بيّن الآن الآثار الجميلة والمباركة من هذا الحدث، وإن كان في ظاهره شر:

(فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

هنا يبيّن موسى -عليه السلام- أنه كان مخطئًا، لم يكن قاصدًا أن يقتل النفس، فهذا في حكم الشرع قتل خطأ، لكن حين يشيع الظلم بين الناس تأتي أمور خلاف الصواب، ومع هذا فرب العالمين المطلع على ما في نيّته، جعل هذا الأمر وإن كان شرًّا ينشأ عنه خير عظيم، فكأنه يقول: نعم، أنا بهذه الفعلة أخطأت وضللت طريق المحسنين، لكن رب العالمين غفر لي، وأعطاني من آثار هذا الأمر ما لم يكن في الحسبان، فأنا وإن كنت فررت منكم لما حصل لي الخوف، لكني وجدت من رب العالمين هبة عظيمة؛ ربنا الذي أحسن إليّ بالتربية، أحسن إليّ بأن رباني عندكم تحت كَنَف أمي، في نفس الوقت بصورة عجيبة، فربي الذي رباني زادني عطاء، بأن وهب لي حكمًا، وهذا كله لأن رب العالمين متفضل على خلقه؛ ولأنه -سبحانه وتعالى- أعلم بالصادقين من الكاذبين، فنتج من هذا الأمر لما فررت وأنا في غاية من الخوف، نتج منه نعمة عظيمة لم تكن بالحسبان (وَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا) يعني علمًا (وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ) فأرسلت إليك وأرسلت أن أخرج بني إسرائيل من تحت سلطانك.

الآن سيزيد موسى -عليه السلام- البيان في الجواب على ما قاله من أنه من الكافرين:

(وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

كأن موسى هنا توجه إلى فرعون وهو يتكلم هذا الكلام فيه منة وفيه تعيير وكأنه هو الرب على الحقيقة وكأنه هو المربي، فيبيّن له أن الوضع القائم كله قائم خطأ، قائم على باطل، أنت تمتنّ عليّ بكونك ربيتني؟! هذا الأمر أصلًا ما حصل إلا لأنك عبّدت بني إسرائيل، هذه النعمة التي تمنها عليّ ما كانت إلا بسبب ظلمك لقومي، عبدتهم وذللتهم ظلمًا وعدوانًا وهم أبناء الأنبياء.

فالمفترض ألا تجد في نفسك إلا الحياء، وإلا أنت الذي أردت قتل أطفال بني إسرائيل ومن هنا تسبب أن ألقت أمي بي في اليمّ وعثرت عليّ امرأتك ومن معها من الحاشية.

هذا فيه أن الإحسان إليه مع الإساءة إلى قومه لا يعدّ إحسانًا ولا منّة، وأن هذا الإحسان إنما أتى من ظلم، فليس في حقيقته إحسان، فكان هذا الرد كافيًا وافيًا.

هذا ما تيسر ذكره، وإن كانت الآيات التالية فيها من المعاني من تعريف الله الشيء العظيم، لكن نسأل الله -عزّ وجلّ- أن يرزقنا فرصة أخرى للتمتع بهذا الكتاب العظيم، والوقوف أمام هذا التعريف الدقيق من موسى -عليه السلام- لرب العالمين.

اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وهمومنا، اللهم آمين.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.